الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: صباح الخير
التاريخ: ٢٠٠٥/٨/٣٠

■ رشاد كامل

"أخطر فيلم وثائقى"

السادات ود. السمان أثناء تصوير الفيلم!

بطولة وإخراج السادات!

كل ما يخطر على بالك سوف تجده فى ذكريات الدكتور «على السمان»! من الحكايات الإنسانية إلى الأسرار السياسية ومن كواليس الدبلوماسية إلى دهاليز المهام السرية.

منذ سنين طويلة عرفت د. على السمان ذلك المثقف الكبير والإنسان النبيل والمتواضع بغير حدود والمتسامح دوما وصاحب شعار «حوار الأديان».

أقرأ له، وأشاهد حواراته، فيزداد إعجابى بغزارة معلوماته وبساطة أسلوبه أما تواضعه الإنسانى فهو درس للجميع.

ذكريات د. على السمان صدرت منذ أيام تحت عنوان «أوراق عمرى من الملك إلى عبدالناصر والسادات» وتقع فى ٤٤٢ صفحة والباقى وثائق وصور نادرة.

بتواضع وبساطة يقول د. على السمان «ظللت مدة طويلة مترددا فى إصدار هذا الكتاب حتى لا يتشابه مع ما نسميه «مذكرات فلان» التى تصدر من وقت لآخر لأن قناعتى أن المذكرات التى تستحق النشر هى لشخصيات قامت بدور محورى فى تاريخ بلادها وليس ذلك هو حجم دورى».

وبعد أن تنتهى من قراءة الكتاب سيزداد إعجابك وتقديرك واحترامك لهذا الرجل المتسامح والمتواضع وأيضا يزداد تقديرك لأدوار قام بها من أجل مصر وعلى امتداد سنوات طويلة دون أن يتحدث عنها أو يتاجر بها!!

لن تجد فى ذكريات د. على السمان فضائح جنسية أو أخلاقية لكنك ستجد احترام الرجل وتقديره وامتنانه لكل من عمل معهم واقترب منهم بحكم العمل والوظيفة والمهمات التى تم تكليفه بها سواء أيام جمال عبد الناصر أو السادات وعنهما يقول: «إننى احترم قيادة عبد الناصر والسادات وأحترم رئاستهما، وأحترم زعامتهما وأكررها فى الختام إنهما كانا عملاقين لا آلهة، بمعنى أنهما غير منزهين ولامعصومين من الخطأ»

ذكريات د.على السمان بديعة وممتعة، فهو يرويها ببساطة ودون حذلقة ولا يبرر موقفا ولا يخترع حجة أو حججا لبعض ما يرويه من وقائع!!

كانت الأجهزة فى زمن عبد الناصر تعتبر د. على السمان طالبا مشاغبا ومتمردا لكن مقابلته لجمال عبد الناصر غيرت هذه النظرة تماما فقد قال له عبد الناصر «من الآن فصاعدا تكون قناة الاتصال بى بالنسبة لك من خلال السيد سامى شرف سكرتير الرئيس لشئون المعلومات».

ثم يضيف د. على السمان قائلا:

وقبل أن أغادر القاهرة ذهبت للقاء الرجل الذى قال عبد الناصر أن إتصالى به - أى الرئيس - سوف يكون من خلاله، ورأيت أن أستمع إلى السيد «سامى شرف»، إن مسمى سكرتير الرئيس لشئون المعلومات ليس شكلا، وإنما هو مضمون حقيقى.. لقد شعرت بأنه على علم بالخطوط العريضة عن نشاطى فى الماضى وقد مر مرورا عابرا على ما تعرضت له خلال عملى العام فى فرنسا وأذكر قوله أن التعليمات التى أعطاها الرئيس عبد الناصر بخصوصك تعنى كلمة واحدة وهى ثقته فيك وبما ستقوم به فى المستقبل لخدمة هذا الوطن فى الخارج».

وللأمانة أقول أن السيد سامى شرف لم يطلب منى معاونته فى التعرف على نشاط أى مصرى فى الخارج وأنه أعطى موافقته الكاملة عندما قلت له: «أرجو أن يكون التعاون فى مضمونه ونهاياته خاصة بالتصدى لدعايات العدو فى الخارج..».

وبدات مع سامى شرف رحلة دامت حتى يومنا هذا وهى رحلة انطوت على مودة ومحبة.

يقول «د. على السمان»: شاءت الصدفة أن يكون الرئيس السادات من قيادات ثورة يوليو الذين لم ألتق بهم يوماً طوال عصر عبد الناصر.. وشاءت الصدفة أيضا أن يتم الترتيب لأول لقاء لى معه بالصدفة.

■■

باختصار شديد كان د. السمان صديق طفولة للدكتور «محمود جامع».

وصاحب الكتاب الشهير الذى أثار ضجة قبل سنوات وعنوانه «عرفت السادات» ثم كان هناك أيضا المهندس «فتحى سالمان» الذى كانت علاقته بالسادات وطيدة كما كان يرتبط بعلاقة نسب مع الدكتور السمان.

ثم يقول د. السمان: فى أحد أيام الجمعة من شهر يونيو ١٩٧٣ زرت «فتحى سالمان» فى بيته بميت أبو الكوم وأنا فى طريقى لأداء صلاة الجمعة فى مسجد نصار هناك والقيام بواجب الزيارة لأولاد عمومتى، وبينما كنا نتحدث فاجأنى سالمان: لماذا لا تبقى لتصلى الجمعة هنا فى مسجد ميت أبو الكوم لتتعرف على الرئيس السادات فى المسجد نفسه!!

ولم يوافق د. السمان على الفكرة لأنها سوف تفسر على أنها مناسبة للتعرف على رئيس الدولة والتقرب منه!

وعندما روى فتحى سالمان القصة للسادات رد قائلا: هو فين على السمان أنا أريد أن آراه ليعطينى رأيه فى مشروع فيلم يريد التلفزيون الفرنسى أن يصوره عن حياتى، وقد تلقيت

رسالة من اصحاب مشروع الفيلم وهى رسالة بالغة التعقيد!

وقام «فتحى سالمان» من جانبه بإبلاغ الدكتور السمان بما قاله الرئيس السادات وطلب منه – من السمان – أن يبحث عن فرصة قريبة ومناسبة للقاء الرئيس.

ويروى د. «السمان» ما جرى بعدها فيقول:

«جاءت الفرصة عندما كنت فى زيارة أخى وصديقى الدكتور «محمود جامع» فى بيته بطنطا وقلت له إن الرئيس أبدى رغبته فى أن يرانى، وأننى أريد أن أرى الرئيس فأبلغنى بأن الرئيس موجود فى ميت أبو الكوم وأنه سيصلى الجمعة بمسجد القرية وأن هذه فرصة ملائمة للقائه.

وتوكلنا على الله وذهبنا معا إلى ميت أبو الكوم، ولكننا وصلنا بعد صلاة الجمعة فتوجهنا إلى بيت الرئيس هناك ودخلنا قاعة الاستقبال وكانت ممتلئة بالزوار، وكان هناك الأستاذ «فوزى عبد الحافظ» سكرتير «السادات»، وعندما أبلغوا الرئيس بوجودنا – أنا والدكتور جامع – جاء فتحى سالمان ليأخذنا إلى ما يشبه الدوار حيث كان يجلس الرئيس مع جمع من الناس يتبادلون الكلام والأفكار.

وحين مددت يدى لمصافحته أحسست منذ اللحظة الأولى أن الرئيس السادات حينما يستقبل أحدا فإنه يفعل ذلك بكل حرارة اللقاء، بعدما أشار لى وقال:

أقعد يا ابنى أنا عايزك.

وبعد فترة قصيرة قام الرئيس مغادرا وصحبنى معه ومررنا بحديقة البيت إلى أن انتهينا إلى ما يسمى فى الريف بتكعيبة عنب، حيث جلسنا معا وبدأ كلامه عن الفيلم وتكلم باختصار وطلب من أحد معاونيه أن يعطينى المشروع لدراسته وإعطاء الرأى، ثم أنهى كلامه معى بأن سألنى عن الدائرة التى تقف فيها أوربا بوجه عام، وفرنسا بوجه خاص من الدول العربية ومن إسرائيل فى هذه المرحلة الحرجة!!

وطالت الجلسة واستمرت نحو ساعتين وتطرقنا فيها إلى أمور كثيرة منها الفرق بين صورة الرئيس عبد الناصر وصورة السادات لدى الغرب وفرنسا على وجه التحديد ثم أحسست أن السادات يكره الشيوعية رغم قوة العلاقات وقتها بين مصر والاتحاد السوفيتى الذى شعرت بأن الرئيس لم يكن يطمئن إليه، ولاحظت أنه كان مهتما بأن يعرف التركيبة الداخلية للجمهورية الفرنسية الخامسة التى كان قد أسسها ديجول عام ١٩٥٨، وكان السادات يريد أن يعرف أكثر عن شخصية الرئيس بومبيدو الذى تولى الحكم بعد الجنرال ديجول عام ١٩٧٠ وكان «بومبيدو» من قبل مديرا لبنك روتشيلد، وقصصت على الرئيس قصة «بومبيدو» ومع روتشيلد» وهى القصة التى رويتها للمشير عامر عند زيارته لباريس قبل

وقلت له من جديد إن روتشيلد اليهودى وصاحب البنك حين اختار «بومبيدو» مديرا للبنك فإنه لم يفعل ذلك لمجرد موقف بومبيدو تجاد إسرائيل بل لقدرته على إدارة وإنجاح أحد أكبر المؤسسات المالية فى العالم.

وأحسست أن السادات قد ارتاح إلى هذه النظرة الموضوعية فى تحليل الأمور واتفقنا على أن نلتقى فى القاهرة لنبدأ الخطوات العملية نحو تحقيق مشروع الفيلم الوثائقى للتليفزيون الفرنسى.

وجاء اللقاء الثانى لأكتشف أن الرجلين اللذين كانا سينفذان الفيلم من بين أصدقائى فى فرنسا كان أولهما هو «روجيه ستيفان» وكان هو صاحب شركة الإنتاج وكان ينتمى إلى اليسار الفرنسى المعتدل وكان قد تعرف فى بداية ثورة يوليو على البكباشى «خالد محيى الدين» عضو مجلس قيادة الثورة فى الخمسينيات وكان بينهما ود كبير.

وكان ثانيهما «هو فرانس شوفيل» مسئول الشرق الأوسط فى مؤسسة الإنتاج التليفزيونى وكان ذا أفكار يمينية محافظة وكان مشهورا

بكتاباته فى صحيفة «لوفيجارو» اليمينية الفرنسية وكان على درجة عالية من الحرفية فى مجال عمله وكان يعرف الكثير عن الشرق الأوسط وقد تزوج من مصورة صديقة كانت ذات سمعة مهنية كبيرة فى فرنسا وأوروبا» وقد نشرت عددا من الريبورتاجات فى مجلات ذائعة الصيت مثل بارى ماتش الفرنسية وكانت تربطها بالأسرة الهاشمية فى الأردن علاقة وطيدة وقد صورت أكثر من ريبورتاج عن الملك حسين وعائلته وعن الرئيس ياسر عرفات وعن الفريق «سعد الدين الشاذلى».

■■■

والآن إلى قصة الفيلم التليفزيونى وكواليس ما جرى حوله حيث يقول د. على السمان:

«التقيت بالرئيس السادات فى بيته بالجيزة وتناقشنا فى الأهمية التى يعطيها أصحاب الفيلم لقرية ميت أبو الكوم التى ولد فيها الرئيس وكان من الواضح ونحن نتناقش أن الرئيس السادات لم يكن من الذين يحبون أن يتدخلوا فى التفاصيل أو أن ينشغلوا بها.. كان المهم عنده هو أن أصحاب الفيلم يريدون أن يقدموه للجمهور الفرنسى والأوروبى الذى لم يكن فى ذلك الوقت يعرفه جيدا، وكان رأيه أنهم إذا كانوا يرون أن ميت أبو الكوم مهمة فى تحقيق هذا الهدف فليست هناك مشكلة.

واكتشفت أن من عادة السادات أن يعطى ثقته كاملة لمن يطمئن إليه وأنهى كلامه معى فقال:

أنت أدرى بهم وتجربتك الإعلامية تجعلك تعرف ماذا نريد منهم فحدد معهم الموعد الذى يناسبهم بالتنسيق مع مكتبى!!

ولم أكن أدرى ونحن نستعد لتصوير الفيلم فى أغسطس ١٩٧٣ أننا كنا على مسافة حوالى شهرين من ساعة الصفر فى حرب أكتوبر، وكانت هناك صعوبات غير عادية ونحن نحاول أن نحدد موعدا نهائيا للتصوير الذى تم تأجيله أكثر من مرة، حتى كاد «شوفيل» وزوجته أن يقررا إلغاء التصوير والعودة إلى باريس لولا أننى تعاملت معهما بهدوء ومودة شجعتهما على البقاء رغم

الصعوبات الكثيرة التى واجهتنا

ويكمل د. على السمان قصة تصوير الفيلم فيقول:

«كانت سعادتى غير عادية حين تحدد أحد أيام الجمعة لبدء التصوير فى استراحة الرئيس بالمعمورة وحين التقينا به، بدا الرجل وكأن لديه كل الوقت وأن لا شىء يشغله فى هذا اليوم إلا تنفيذ التصوير، وأذكر إننا صاحبناه إلى جزيرة الشاى فى وسط البحر أمام استراحته والتقطنا له صورا نادرة كان من بينها لقطات له وهو يسبح فى البحر وحوله حراسه الذين أذكر منهم حتاتة وزينهم واللواء الدغيدى بمكتب الرئيس وغيرهم ممن أحتفظ بمودتهم وصداقتهم إلى اليوم.

وفى جزيرة الشاى قضيت معه بعد انتهاء التصوير وقتا طويلا نتكلم فى كل شىء عن السياسة الخارجية إلى السياسة الداخلية إلى كل ما كان يهم الرئيس وقتها وفى ميت أبو الكوم، تم تصوير الرئيس، وهو يصلى فى مسجد القرية.

وأذكر أنى حضرت التصوير يومها، وأنا أرتدى عباءة سوداء، كنت قد فصلتها عند رجل عجوز من قدامى «الترزية» المتخصصين فى طنطا، عندما رآنى السادات بها، داعبنى قائلا: إيه يا ابنى العباية دى ؟.. دى تفصيل عند بييركاردان واللا إيه ؟!

ثم كان علينا أن نصور السادات، وهو فى حديقة بيت ميت أبو الكوم، مع بعض فلاحى القرية، الذين كانوا قد جلسوا معه على الأرض، يتحدثون، وهو يتحاور معهم، فى لغة بسيطة، ومشهد أكثر بساطة.. ورغم أن فلاحى ميت أبو الكوم جميعا، كانوا يعرفون السادات، ولم يكن غريبا عليهم أن يجلسوا، أو أن يتحاوروا معه.. ولكن، عند التصوير، بدا واضحا لنا، أن الفلاحين لم يكونوا على طبيعتهم، لأنهم، كانوا يحسون أنهم، رغم كل شىء، يجلسون فى نهاية المطاف - مع رئيس الدولة.. وليس مع السادات ابن القرية، وأحد أفرادها، وقد أحس السادات بذلك، ولاحظه بسرعة.. وهنا برزت

قدرة السادات الإعلامية غير العادية، حتى قرر إخراج المشهد.. لقد شعر، من ناحيته، أن الصورة لو خرجت على هذا النحو، الذى يبدو فيه الفلاحون على غير طبيعتهم وتلقائيتهم، فلن تكون كما ينبغى أن يراها الناس.. وإذا به يفاجئنا، وهو يروى لهم قصة، ويتبسط فيها، ويقربهم إليه وهو يقول، فى لغة شدت الفلاحين إلى أبعد الحدود: أنا كنت الشهر الماضى يا أولاد، عند الرجل الطيب كرايسكى رئيس النمسا، وأعجبنى نوع البقر النمساوى، وأعجبت به أكثر عندما علمت بما يدره من خير كثير، وطلبت منه أن يبعث لنا ٢٠٠ بقرة «وإن شاء الله حيكون لكم نصيب».. وفعلا، بدأت وجوههم تنفرج، وتبدو عليهم الدهشة والابتسامة، وهم يتابعون موضوعا يهمهم ويعرفون أنهم سيكون لهم فيه نصيب.

هذا هو أنور السادات، الخبير بشئون الإعلام، فكرا، وعملا، وتنفيذا.

ثم اتجهنا إلى تصوير جزء من الفيلم فى قصر راس التين بالإسكندرية، وتسلق الفنيون فى صناعة الفيلم إلى أعلى إحدى أشجار القصر العالية، ليصوروا موكب الرئيس وهو فى طريقه إلى داخل القصر، فى مشهد مهيب لا يمكن أن ينساه من يراه مع تحية الحرس الجمهورى.. وهناك حكى السادات قصة خروج الملك فاروق، من راس التين، عندما قامت ثورة يوليو عام ٥٢.

كان التصوير قد تم، فى ميت أبو الكوم بالجلباب البلدى والعباءة... وفى جزيرة الشاى كان بالمايوه والشورت.. أما فى راس التين فكان على الرئيس أن يرتدى بدلة زرقاء.. وسمحت لنفسى بأن أنصح الرئيس بأن يرتدى قميصا لبنيا «أزرق فاتح» لأن التجربة مع الكاميرا تقول أنه عندما تكون البشرة تميل إلى السمرة فإن اللون الأبيض فى القميص لا يعطى نضارة الوجه المطلوبة.. ولم يناقشنى الرئيس فى ذلك... ولكن عندما شاهد- على شاشة صغيرة - تجربة ما قبل الطبع النهائى للفيلم،

عرف أهمية النصيحة، وعبر عن سعادته قائلا: الفرنساويين أساتذة فى فن التليفزيون.

بعدها، كان الرئيس على موعد مع عشاء رسمى، وذهب إليه وهو يرتدى القميص اللبنى... وحاول نور فرغل، المسئول فى ديوان الرئاسة عن البروتوكول، أن يشرح للرئيس، بأدب ودبلوماسية، أنهم فى انتظار أن يسمح وقت الرئيس بتغيير القميص استعدادا للعشاء الرسمى... وفاجأه الرئيس قائلا: يا ابنى أنا عارف إنه عشاء رسمى، بس ده عشا متصور.

وكانت هناك لقطات رائعة فى استراحة الفناطر الخيرية حول هذه الشجرة الكبيرة والقديمة، والتى قيل أن جمال عبد الناصر جلس تحتها يفكر فى القرار التاريخى بتأميم قناة السويس ٥٦، ونفس الشجرة من المحتمل أن تكون هى مصدر إلهام للرئيس السادات قبل قرار حرب أكتوبر، وكانت اللقطة الأخيرة فى هذا الفيلم للرئيس وحده صامتا ووراءه النيل الخالد، قبل أن يقول: «أحيانا تكون الوحدة مخيفة على قمة السلطة».

وذهبت إلى السادات فى بيت الجيزة، ومعى شوفيل، مسئول إنتاج الفيلم، وقلت للرئيس هذا هو الفيلم أمامك، وهذا هو مسئول الإنتاج، وهذا هو المقص نمارس به دور الرقيب.

وإذا بالرئيس يقول: لقد قمتم بتجربة عظيمة وجديدة، وهى أن معظم التعليقات على الصور، كانت من كلامى نفسه، وقد أتى الوقت الذى ينبغى أن نفهم فيه، بأننا حين نأتى لنخاطب الغرب، أننا يجب أن نخاطبه من منظوره هو، وباللغة التى يفهمها، وبالتالى فليست عندى أية ملاحظات، ولن نلغى لقطة واحدة.

وكان الفيلم، بعد ذلك، على توقيت غير عادى.. إذ اندلعت حرب أكتوبر بعد الانتهاء من تصويره بشهر واحد، فانتشر أمره وذاع صيته فى الغرب، بطريقة هائلة، فتم توزيع الفيلم فى ٥٤ بلدا على مستوى العالم.

وفوجئت بعد توزيع الفيلم، وتحقيقه

لمستويات نجاح باهرة فى أوروبا وأمريكا وأستراليا وكندا. وكنت وقتها قد تم تعيينى مديرا للإعلام الخارجى برئاسة الجمهورية... فوجئت بأن هناك ردود فعل غاضبة وثائرة، من عدد كبير من سفرائنا فى الخارج، الذين كانوا قد رأوا فى بعض لقطات الفيلم البريئة، إساءة إلى مصر، ودعاية ضدها.

كانوا يرون أن الطفلة الصغيرة البريئة، التى تظهر فى الفيلم، وهو يعرض حياة الرئيس فى ميت أبو الكوم.. هذه الطفلة سوف تجذب أنظار الغرب بعينيها السوداوين وتذكرهم بأجدادها الفراعنة من حيث شكل العين ولونها.. ولكن من وجهة نظر السفراء الذين احتجوا - وقتها - فإن الذبابة التى قد تظهر فى الصورة، وهى واقفة على رأس الطفلة، سوف تشد - أكثر - أنظار المشاهد الشرقى والغربى.. ونفس الشىء، حين يظهر فى الفيلم، طفل صغير، وهو يستحم عاريا فى الترعة.

إن السفراء الذين تربوا فى جامعات إكسفورد، وكامبريدج، والسوربون، إنما كانوا يحلمون بالصورة التليفزيونية الأمثل لمصر... كانوا يحلمون بشارع العروبة فى نظافته... وبنادى الجزيرة فى فخامته.

ولكن، وعلى مستوى آخر، كان هناك نوع من التنافس المفهوم، بين إعلام الدولة التقليدى، وبين هذا الإعلام الجديد الذى شاء الرئيس السادات أن ينشئه خصيصا لحرب أكتوبر، مع السفير أشرف غربال، المستشار الإعلامى للرئيس وقتها، ومع شخصى، باعتبارى مديرا للإعلام الخارجى برئاسة الجمهورية.

■■

كان تقرير الإعلام الرسمى عن أحداث الفيلم سلبيا للغاية.. وفوجئت عند عودتى إلى مصر بعدها، وعندما ذهبت مع صديقى رئيس التليفزيون فى ذلك الوقت المرحوم عبد الحميد يونس لأداء صلاة الجمعة فى جامع السيدة نفيسة، التى يعتقد كثيرون فى بركاتها -

وأصارح القارئ بأننى منهم - فوجئت بعد أن فرغت من الصلاة، برجل يقترب منى، ولم يكن متسولا، ولا طالبا للحاجة.. وإنما فاجأنى وهو يشد سترتى نحوه ويقول لى: «أرادوا بك شرا ولكن الله هو خير الحافظين».

أما المفاجأة الحقيقية فكانت عندما توجهت بعدها مباشرة، إلى استراحة الرئيس فى القناطر الخيرية، بصحبة السفير أشرف غربال، للقاء الرئيس السادات.. وإذا بالرئيس يخاطب أشرف غربال، وهو يشير نحوى ويقول: كانوا عايزين يدبحوه يا أشرف عشان موضوع الفيلم التليفزيونى.. ولم أتابع باقى كلمات الرئيس.. ذلك أن ذهنى قد شرد بعيدا، وسريعا لأتذكر الرجل الذى قابلته منذ قليل فى السيدة نفيسة.

وأحس السفير أشرف غربال بالقلق، وهو يستمع إلى كلام الرئيس السادات من غضب وعدم ارتياح واحتجاج سفرائنا فى الخارج على الفيلم، وكذلك عن رأى الإعلام المصرى.. وبادر السفير غربال، بذكاء ودبلوماسية، فقال للرئيس: من الطبيعى يا ريس فى هذه المرحلة التى نجتازها، أن نقيم كل تجربة نمر بها، وأن نصحح السلبى منها.

وكانت المفاجأة الأكبر، حين أكمل الرئيس كلامه' وهو يقلب على الوش التانى' ويقول: دول متخلفين يا أشرف.. ماذا يطلبون منى حين أصور القرية المصرية.. هل أغطيها بملاية.. هل يفهم هؤلاء الناس، أن ما يهم فى الصورة، هو التعليق الذى يقال عنها ؟!

وخرجنا من عند الرئيس، وأنا أقول بينى وبين نفسى: لقد أنقذ على السمان من التهلكة، بفضل النظرة المتقدمة للرئيس السادات، وبفضل فهمه العميق للإعلام.. وهو فهم سبق الرجل به عصره، بكل المعايير والمقاييس.

ويحتمل أيضا بفضل «بركة» السيدة نفيسة..!

وما أكثر الحكايات ذات الدلالة فى كتاب د. على السمان وكلها جديرة بالقراءة مرة والتأمل مرات!!

رشاد كامل

السادات غاضبا!!

ويسبح!!

برع السادات فى جذب أضواء الكاميرات !